المفكر المصري جلال أمين ناقدا المرجعية الفلسفية للتقدم والتخلف:

تنبؤات هكسلي واورويل عن مستقبلنا المخيف اضحت مرجعية مهمة.. وامارتيا سن برر استخدام الحرية للقمع

تقارير التنمية تخدم الاستراتيجية الامريكية.. وشعارات الديمقراطية وتحرير المرأة غطاء للسيطرة على النفط

منتصر حمادة*

هل يمكن وصف بلد ما بأنه مُتقدم، ونعت آخر بأنه مُتخلف استنادا إلي معايير النمو الاقتصادي وحدها؟ كان علينا انتظار صدور «خرافة التقدم والتخلف»، أحدث مؤلفات الاقتصادي المصري الشهير جلال أمين، حتى نطلع على تقييم ممتع، بأسلوب شيق يجمع بين السلاسة والعمق في معرض نسف هذه الأطروحة الكلاسيكية.

والواقع أن الكتاب يثير شكوكا كثيرة في صحة الاعتقاد بفكرة التقدم والتخلف، وفيما إذا كان من الجائز وصف دول أو أمم بأنها «مُتقدمة» وأخرى بأنها «متُخلفة» أو «مُتأخرة». صحيح أنه قد تنجح بعض الأمم في تحقيق إنجازات في أمور معينة وتعجز عنها غيرها، ولكن الوصف الشائع لبعض الأمم بـ «التقدم» والأخرى بـ «التخلف» لا يقترن عادة بتحديد ميدان معين أو ميادين بعينها، بل يطلق بصفة عامة ودون تمييز، وكأن التفوق عام والتخلف في كل شيء. ثم إن الحضارة القائمة في الأساس على تقدم التكنولوجيا، يضيف أمين، لابد أن تقع في هذا الخطأ: المبالغة في الاعتقاد بأهمية الاقتصاد وفوائد التخصص. وفي مثل هذا المناخ من الممكن جدا أن تظهر مفاهيم من نوع «الرفاهية الاقتصادية» التي تقوم على تصور أن رفاهية الإنسان يمكن تجزئتها إلى أجزاء يمكن أن يفهم كل منها على حدة، وأن أهم هذه الأجزاء هو الجزء الاقتصادي.

■ خُصِّص الفصل الأول من الكتاب لبيان أن فكرة التقدم والتخلف، بعكس ما قد يظن، ليست فكرة قديمة، كما أنها ليست بديهية، بل العكس هو الصحيح. ويتساءل عن السبب في ظهورها وانتشارها، كما يتتبع نشأة وتطور ما يصطلح عليه بالعامية عند الأشقاء في مصر بـ «عقدة الخواجة» وهي عقدة اقترنت بالاعتقاد بفكرة التقدم والتخلف عند أجيال متتالية من المصريين.

وخُصِّص الفصل الثاني للتشكيك في جواز قياس التقدم والتخلف بمقياس اقتصادي بحت وهو التنمية الاقتصادية، وفي اعتبار بعض الأمم أكثر تقدما في مضمار «التنمية الإنسانية» من غيرها.

كما تناول الكتاب ستة ميادين شاع الاعتقاد أن أُمَماً معينة من دون غيرها قد أحرزت فيها تقدما رائعا وإنجازات عظيمة، وهي ميادين الحرية والديمقراطية والنظام الاقتصادي وحقوق الإنسان وثورة المعلومات وعلم الأخلاق ، وخُصِّصت الفصول الأخيرة لدحض اتهام بعض الأمم والدول، وعلى الأخص العرب والمسلمين بالإرهاب، ، وللترحال التفكيكي الممتع نحو عالم «التقدم إلى الخلف»، ثم التفصيل في الفروق المفاهيمية بين «الإصلاح» و «التحديث».

نقد تقديس المستقبل

يفتتح جلال أمين عمله بنقد الاحتفاء المبالغ فيه بدخول العرب القرن الميلادي الجديد (القرن 21)، وقد شملت طقوس «الاحتفاء» تصريحات السياسيين الذين لا يجدون شيئا يثيرون به الحماسة للعمل والإصلاح أفضل من قولهم بضرورة «تأهيل أنفسنا لاستقبال القرن الجديد، وأننا إن لم نفعل هذا أو ذاك فسنعود أدراجنا إلى القرن التاسع عشر أو حتى إلى العصور الوسطى، بينما يدخل غيرنا القرن الحادي والعشرين بجدارة واستحقاق»، مُلاحظا أنه حتى في تقييم الفنون والآداب ـ وهي التي يفترض أنها لا تخضع لما يخضع له العلم من تقييم موضوعي والمقارنة بين «التخلف» و«التقدم» ـ نجد أن من أقوى عبارات الثناء التي يمكن أن تقال في وصف لوحة رسم قديمة، أو إناء من الفخار صنع منذ قرون سحيقة، أو قصيدة شعر قالها شاعر قديم، أن نقول إن هذا أو ذاك «يبدو عصريا بدرجة مدهشة» أي أنه يقترب من نمط رسومنا وفنوننا الحالية بدرجة تدعو إلى الإعجاب، أو أن يقال في مدح هذا العمل الفني أو ذاك بأنه كان «يمهد بدرجة مدهشة لما حدث بعد ذلك من تطور» أو أنه كان «سابقا لعصره».

والحال، وهذه ملاحظة دقيقة للمؤلف، أن مثل هذا التقديس للمستقبل والتسليم الأعمى بفكرة التقدم لا نجدهما بنفس الدرجة، لدى الكثيرين من البسطاء: بسطاء التعليم وبسطاء الدخل. وهي ظاهرة لا تدل بالمرة على أن هؤلاء هم بالضرورة بُسطاء أيضا في الحكمة، أو أنهم أقل إدراكا «لحقيقة الأشياء». كل ما هنالك هو أن هؤلاء لم يتعرضوا كما تعرض غيرهم لهذه الجرعات القوية من عقيدة التقدم وتقديس المستقبل واحتقار كل ما هو قديم، بسبب قلة حظهم من التعليم وضعف قدرتهم على متابعة وسائل الإعلام والثقافة الحديثة.

لا يُفهم من كلام الكاتب أنه يدافع بالطبع عن الأمية أو عن انخفاض مستوى التعليم، بقدر ما يلفت النظر إلى ما ينطوي عليه التعليم الحديث من بعض الأفكار المسبقة ومن المسلمات والعقائد التي تغرس في أذهان التلاميذ وكأنها حقائق، ومن بين هذه الأفكار المسبقة ومما يؤخذ كمُسَلَمات وهي مشكوك في صحتها، ويقصد طبعا الاعتقاد بفكرة التقدم.

نقد فلسفة تقارير التنمية

أسئلة حرجة نتعمد صرف النظر عنها تلك التي يثيرها المؤلف في كتابه الرائع، ونقتطف منها الاستفسارات التالية: «أين العلاقة بين كون أمتك أقوى من أمتي عسكريا، أو أكثر رخاء أو أكثر تقدما في العلم والتكنولوجيا، وبين ما إذا كان دينك أقرب إلى الحقيقة من ديني؟ لغتك أرقى أم لغتي؟ أدبك في عصر ازدهاره أجمل أو أقل جمالا من أدبي في عصر ازدهاره؟ موسيقاك أقدر على تحريك المشاعر أم موسيقاي؟ شعبك أخف دما أم أثقل ظلا من شعبي؟ أسرع بديهة أو أكثر فصاحة؟ معاملتك للمرأة أكثر إنسانية أم معاملتي لها؟ حبك للأطفال أقوى أم أضعف من حبي لهم؟ ما العلاقة بين القوة العسكرية أو الرخاء المادي أو التقدم العلمي أو التكنولوجي بما إذا كنت أسرع إلى الصفح مني؟ أكثر أم أقل استعدادا للعفو عند المقدرة؟ أو أقدر أم أقل قدرة على ضبط النفس عند الغضب؟». وبعد سرد مجموعة من الإجابات غير الكلاسيكية على أسئلته الحرجة، يخلص جلال أمين إلى أن العلاقة بين درجة القوة أو الغلبة، أو بين الرخاء المادي أو التقدم العلمي، أبعد ما تكون عن الوضوح والحسم، لولا أنه يبقى من السهل أن يقع الإنسان في الفخ، عبر السقوط في طرق الخداع التي تستدرج المتلقي إلى توهم وجود علاقة أكيدة بين شيئين العلاقة بينهما جد واهية، مفضلا الاشتغال على نموذج طالما تم التطبيل له من قبل الأقلام العربية في معرض تقييم الأداء «الحضاري» للعالم العربي، وتحدث عن تقرير «التنمية الإنسانية العربية»، ومشيرا أولا ـ وهذا ما غاب في ثنايا العديد من الدراسات النقدية التي تطرقت للتقرير في نسخه القديمة والجديدة ـ إلى أن مشروع «الشرق الأوسط الكبير» والذي تضمن، بصورة عامة جدا، ما تنوى الولايات المتحدة عمله لتطوير العالم العربي، فوجئنا بإشارته، والتقييم للمؤلف، إلى الأهداف نفسها التي تضمنها تقريرا «التنمية الإنسانية العربية» الشهيران الصادران عن برنامج الأمم المتحدة للإنماء في عامي 2002 و2003 وهي أهداف الديمقراطية والحرية واحترام حقوق الإنسان، والنهوض بأحوال المعرفة، و «تمكين المرأة» أي تحريرها ورفع صور القهر عنها، وكذلك دفع عجلة التنمية وعلى الأخص بالاعتماد على القطاع الخاص.

ومن ينكر أنه أصبح «مطلوبا منا الآن» توجيه ضربة قاصمة لثقافتنا الوطنية بحيث لا تبقى أمامها فرصة للاستمرار. إن ثقافتنا الآن لا توصف بالتأخر أو التخلف بل بـ «الإرهاب» والمطلوب الآن ليس الارتقاء بهذه الثقافة بحيث تتكيف مع متطلبات التنمية الاقتصادية، على أساس أن هذه هي طريقة التعامل المناسبة مع «التخلف» بل المطلوب الآن استئصال هذه الثقافة من جذورها، على أساس أن هذه هي طريقة التعامل المناسبة مع «الإرهاب».

وبَدَهي أنه لم يكن هناك بد لأي شخص حصيف، عندما يقرأ هذا الكلام، من أن يجد فيه الكثير من دواعي السخرية. من أهمها أن أي هجوم استعماري قديم أو جديد، كان دائما يغطي الأهداف الدنيئة بشعارات سامية، والأرجح أن الهجوم على العراق لا يختلف في هذا عن الهجمات الاستعمارية السابقة، ومن ثم تستخدم شعارات الديمقراطية والمعرفة وتمكين المرأة والتنمية للتغطية على أهداف أخرى كالسيطرة على النفط وفتح أسواق للسلع والاستثمارات وتمكين إسرائيل... الخ. ولو توقفنا عند ما يُصطلح عليه بـ «تمكين المرأة» ـ نموذجا ـ فلا يمكن أن ينكر أحد أن المرأة المصرية أو العربية تعاني من بعض صور القهر التي يتعين التخلص منها، ولكن، يتساءل الكاتب، أي امرأة في العالم لا تعاني من بعض صور أو أخرى من القهر؟ وأي مرحلة من مراحل التاريخ عرفت مساواة بين المرأة والرجل؟ إن من الخطأ الظن بأن الأمم المتقدمة اقتصاديا وتكنولوجيا لابد أن تكون قد نجحت أيضا في تحرير المرأة من كل صور القهر.

تقييم جلال أمين لثنايا تقارير التنمية يتقاطع مع تقييم المفكر الفلسطيني منير شفيق، والذي تساءل من جهة عن أسباب اعتبار التقرير داعما للرأي الأمريكي الذي يرى أن المجتمعات العربية هي وحدها المسؤولة عن تفريخ الإرهاب، ولاحظ على الخصوص أن التقرير «أصبح مرجعا في استهداف الأمة»، مستشهدا على الخصوص بما قاله سعد الدين إبراهيم من أن «أحداث 11 أيلول (سبتمبر) 2001 أعطت أمريكا الحافز الاستراتيجي لحركة ضد الأنظمة العربية المستبدة، وأعطاها تقرير التنمية الإنسانية العربية المبرر المعنوي لهذا التحرك»، وما حرره توماس فريدمان الذي يدعو صناع القرار السياسي في البيت الأبيض، ومعهم العديد من الفاعلين السياسيين العرب إلى اعتبار أن الوجود الأمريكي في العراق سببه «واحد؛ هو مساعدة العراقيين لتطبيق تقارير التنمية الإنسانية العربية حتى يمكن أن تحدث حرب الأفكار من الداخل كما يسعى المفكرون العرب». (انظر: منير شفيق. تنمية إنسانية أم عولمة؟ دار الطلظظيعة. بيروت. الطبعة الأولى 2004).

ويخلص جلال أمين أننا انتقلنا عبر خمسين أو ستين سنة من التنمية الاقتصادية إلى التنمية البشرية إلى التنمظظظية الإنسانية. وفي كل خطوة كان استخدام لفظ "التنمية" يبدو كريها أكثر فأكثر.

نقد ديمقراطية أمارتيا سن

لم يسلم الكاتب الهندي أمارتيا سن (الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد) من انتقادات جلال أمين، وحسنا كان أن صدرت هذه الانتقادات عن رجل اقتصاد مرجعي في الساحة العربية، عندما توقف عند حيثيات مجموعة من المحاضرات ألقاها أمارتيا سن في سنة 1996 أمام كبار الموظفين بالبنك الدولي، قبل أن يقرر جمع هذه المحاضرات في كتاب «التنمية كحرية» الذي نشر لأول مرة بالإنكليزية في سنة 1999. ولا بد، يضيف الناقد العربي، أن المحاضرات قد أدخلت السرور على قلوب المسؤولين في البنك، بل وعلى قلب كل من له صلة بـ «المؤسسة» بأوسع معاني «المؤسسة» أي بمعنى الأفراد والهيئات والمنظمات والشركات المتحكمة في مصير هذا العالم، سياسيا واقتصاديا وثقافيا وإعلاميا، بل ولابد أنها أدخلت السرور أيضا على كل من يهمهم أمر الإمبراطورية الأمريكية التي يجرى الآن ومنذ سقوط الكتلة السوفييتية، تثبيت دعائمها وترسيخها.

معلوم أن أمارتيا سن حاز على جائزة نوبل في الاقتصاد في سنة 1998 أي فيما بين إلقائه لهذه المحاضرات وبين ظهور الطبعة الأولى من الكتاب ومن الخطأ في رأي المؤلف، القول بأن اتخاذ هذا الموقف من جانب أمارتيا سن في هذه المحاضرات وغيرها من محاضرات وكتابات في العشرين سنة الأخيرة، هو سبب حصوله على جائزة نوبل ولكن من الخطأ أيضا أن ننفي وجود أي علاقة بين الأمرين. فالمرء لا يحصل على جائزة نوبل لمجرد أن «المؤسسة» راضية عنه، إذ لا بد أن يكون قد أثبت جدارته العلمية أو الفنية بالمقارنة بأقرانه في فرع تخصصه، ولكنه على الأرجح لا يحصل على هذه الجائزة إذا كانت «المؤسسة» غير راضية عنه.

إذا كان الأمر كذلك، فلا بد أن يبدو الاسم الذي اختاره الأستاذ أمارتيا سن لمحاضراته وكتابه «التنمية كحرية»، داعيا إلى شيء من السخرية، إذ ها هي الحرية تستخدم كوسيلة للقهر، أو بعبارة أدق، ها هو شعار الحرية يستخدم للدفاع عن نمط للحياة تزدهر في مختلف صور القمع والقهر. ولكن هذه ليست المرة الأولى على أي حال التي يستخدم فيها شعارا الحرية كقناع لممارسة القهر، حدث هذا من قبل في روسيا السوفييتية، وفي ألمانيا النازية، وفي إيطاليا الفاشية، وتستخدمه الآن بنشاط كبير أمريكا الديمقراطية.

فالجميع يعرفون أن النظام السوفييتي أو النازي لم يكونا ديمقراطيين، والجميع يعرفون أيضا أن معظم النظم التي تسمى نفسها ديمقراطية في العالم الثالث، هي أيضا نظم غير ديمقراطية. ولكن المهم الآن أن ندرك أن تدهورا خطيرا قد طرأ على النظام الديمقراطي حتى في الدول التي كانت قد سارت شوطا بعيدا في مضمار الديمقراطية السياسية خلال القرن الماضي، وأن من أخطر الأمور الاستسلام للوهم الشائع بأن العالم ككل سائر نحو المزيد من الديمقراطية. ولاشك أن مما ساعد على الاستسلام لهذا الوهم استمرار خضوعنا لذلك الاعتقاد الشائع بفكرة التقدم، أي بأن المجتمع الإنساني يسير بصفة عامة وبشكل مطرد من الأسوأ إلى الأفضل، والاعتقاد بأن المجتمعات المتقدمة اقتصاديا وتكنولوجيا، هي أيضا وبالضرورة المجتمعات الأكثر تقدما في مجالات التنظيم الاجتماعي والسياسي ومن هذه المجالات تطبيق الديمقراطية.

كذلك فيما يتعلق بالديمقراطية. مجتمعاتنا تحتاج بلا شك إلى مزيد من الديمقراطية ولكن ما هو الرائع بالضبط في نوع من الديمقراطية يصفه كاتب أمريكي بأنه «أفضل نظام سياسي يمكن أن تشتريه بالنقود؟» وما هو الرائع في نظام للانتخابات يتنافس فيه حزبان كبيران، الاختلاف المهم الوحيد بينهما ليس هو الاختلاف حول السياسة الخارجية الأمريكية ولا حول البقاء في العراق أو الخروج منه، بل ما إذا كان يسمح أو لا يسمح بالزواج المثلي؟

من هكسلي إلى أورويل

ما الذي يجمع بين ثنايا الكتاب الشهير « عالم جديد جريء»، لصاحبه ألدوس هكسلي (صدر عام 1932) والرواية الأخرى الشهيرة لجورج أورويل وقد أطلق عليها اسما غير مألوف وهو (1984)؟ (صدرت عام 1948)

لنُلاحظ بداية أنه رغم مرور أكثر من نصف قرن على كتاب أورويل، وأكثر من سبعين عاما على كتاب هكسلي، نجد أن ذكر هذين الكتابين يتكرر بمعدل متزايد، والاهتمام بهما يشتد ويزداد تكرار السؤال: هل العالم يقترب من الصورة التي رسمها هكسلي للمستقبل، أو تلك التي يرسمها أورويل؟ هل كان الاثنان محقين في تنبؤهما بهذه الصورة المخيفة للعالم؟

ولنلاحظ أيضا أنه مباشرة بعد صدمة تفجيرات نيويورك وواشنطن، ازداد الاهتمام بهذين الكتابين، وعندما حل عام 2003 الذي يكتمل به مرور قرن كامل على ميلاد أورويل، ضاعف من الاهتمام بذكراه ما كان لا يزال سائدا من قلق بسبب ما وقع في أيلول (سبتمبر) 2001 وما تلاه من تطورات خطيرة في السياسة الأمريكية وفي العالم بوجه عام. فإذا بالمقالات الصحافية تتردد فيها تعبيرات كان قد صكها أورويل لأول مرة في روايته لوصف ما يمكن أن يكون عليه العالم في المستقبل، والملاحظ أخيرا، أن الكتب الحديثة تصدر للإشادة بنفاذ بصيرة أورويل وصدق تنبؤاته ولكن يكتب البعض أيضا أن العالم الذي صوره هكسلي قبل أورويل بعشرين عاما هو الأقرب إلى ما يحدث في العالم اليوم، وأن تنبؤات هكسلي هي الأقرب إلى الصدق.

يرى المؤلف أن هكسلي لم يكتب روايته ولا أورويل كتب روايته (1984) كمجرد تمرين للقدرة على التخيل والتنبؤ أو لمجرد التسلية. بل كان كل منهما يقصد شيئا أخطر من هذا بكثير. كان هكسلي وأورويل كاتبين شديدي الجدية، وعلى مستوى عال جدا من الالتزام الخلقي والاهتمام بقضايا المجتمع والإنسان بوجه عام. كان كل منهما في المقام الأول كاتب مقال، وأهميتهما ككاتبي مقال أكبر بكثير من أهميتهما كروائيين. ذلك أنهما رأيا، أن الرسالة الأخلاقية التي يريد كل منهما توصيلها للناس تصبح أقرب منالا عن طريق الرواية منها عن طريق المقال. وقد كتب كل منهما روايته مدفوعا بشعور قوي جدا بالخوف والتشاؤم من المستقبل الذي يهدد العالم.

إن وسائل الإعلام لا تخدع الناس فقط بنشرها أخبارا مختلفة وترديد تفسيرات واحدة لا تتغير ومعدة سلفا، بل تخدعهم أكثر، كما قال هكسلي في مقدمة سنة 1946 بتجنب الحديث في أمور معينة وحظر تناول موضوعات حساسة قد يؤدي الكلام فيها إلى فضح الروايات الرسمية، أو على حد تعبيره «قول الحق شيء عظيم فعلا ولكن الأعظم منه، من وجهة النظر العملية، السكوت عليه»، والإحالة هنا على الرواية الرسمية لتفجيرات نيويورك وواشنطن، تلك التي طالما انتقدها جلال أمين في العديد من مقالاته، مستنتجا أن الناس في عالم ما بعد 11 أيلول (سبتمبر) 2001 يبدون إذن كما تصور هكسلي في 1932 وكأنهم يعيشون في عالم خيالي لا يمت للحقيقة بصلة: يستغرقون في عمل ميكانيكي وروتيني في الصباح، ولكنه بالغ الكفاءة لكي يلقوا بأنفسهم في المساء مرهقين وفاقدي القوى، أمام تلفزيون لا يكف عن تكرار أخبار ملفقة وتعليقات كاذبة ولكنها مدروسة بعناية ومقترنة بصور جذابة تجعل تصديق الأخبار والتعليقات أمرا حتميا والشك في صحتها مستحيلا، وترسخ في هذه الأذهان المرهقة أفكارا بعينها عن الإرهاب والإرهابيين، وعن الإسلام والمسلمين، وعن روعة الحياة الأمريكية وجمالها، وأنه لا شيء في الإمكان أبدع مما هو كائن لولا ما يمكن للإرهابيين عمله لإفساد هذه الحياة. ولكن الحكومة وأجهزة الأمن متيقظة، ولا داعي في الحقيقة للشعور بالخوف، أو بالأحرى لا بأس في الحقيقة من الشعور بالخوف والطمأنينة في نفس الوقت. (ص 151)

كتاب ممتع ومفيد وقلق لمختزلي التقدم والتخلف في مؤشرات بورصة نيويورك وثقافة «الماك».

وسائل الإعلام لا تخدع الناس فقط بنشرها أخبارا مختلفة وترديد تفسيرات واحدة لا تتغير ومعدة سلفا، بل تخدعهم أكثر كما قال هكسلي في مقدمة سنة 1946 بتجنب الحديث في أمور معينة وحظر تناول موضوعات حساسة قد يؤدي الكلام فيها إلى فضح الروايات الرسمية: قول الحق شيء عظيم فعلا ولكن الأعظم منه، من وجهة النظر العملية، السكوت عليه...

* كاتب من المغرب

الكتاب:

جلال أمين
«خرافة التقدم والتخلف: العرب والحضارة الغربية في مستهل القرن الواحد والعشرين
دار الشروق. القاهرة/ 2005
175 صفحة